الفصل الرابع عشر

المبادىء التى روعيت فى التربية الاسلامية عند اختيار المناهج الدراسية

فى التربية الحديثة اليوم روعيت ميول الاطفال ورغباتهم فى الطفولة فاختير لهم من المواد الدراسية القصص الخرافية وحكايات عن الحيوان والطيور ومشاهد الطبيعة والتعبير بالرسم والاشغال اليدوية والحركات التوقيعية وأناشيد الطفولة ، كمـــا روعيت الفروق الفردية بينهم والمواد المتصلة بالبيئة المدرسية والنواحى المهنية التى تعد الانسان اعدادا كاملا وتربيه تربية اجتماعية وجسمية وعقلية ووجدانية وعملية وخلقية وتجعله قادرا على كسب عيشه وتكون منه انسانا كاملا ولهذا حفل المنهج بكثير من المواد الدراسية ٠

واذا نظرنا الى التربية الاسلامية لحظنا انها عند اختيار المنـــاهج الدراسية قد راعت المبادىء الآتية :

١ ـ أثر المـــادة فى تربية النفس وكمالها فدرست العلوم الدينية والالهية لان أشرف العلوم معرفة الله وصفـــاته اللائقة به ٠ فالفـارابى فيلسوف القرن الرابع الهجرى يضع علم الالهيات فى مرتبة الشرف الاولى ويعده أسمى العلوم وأعظمها ٠ وما سواه من العـــلوم خدم وتبع له ٠ ولذلك كان بعض العلماء يسمونه أحيانا العلم الاعلى كما يسمون الرياضة بالعلم الاوسط والطبيعة بالعلم الادنى ٠

وقد ذكر النمرى القرطبى فى كتابه «جامع بيان العلم وفضله(١)» ان العلوم عند أهل الديانات ثلاثة : علم أعلى ، وعلم أدنى ، وعلم أوسط ، فالعلم الاعلى عندهم هو علم الدين ٠ والعـلم الاوسط : هو معرفة علوم الدنيا ٠٠٠ كعلم الطب والهندسة ٠٠٠ والعلم الادنى كالصناعات والفنون العملية مثل السباحة والفروسية والخط وهى المواد التى تكتسب فيهـا المهارة بتدريب الجوارح والمرانة ٠ ففلاسفة الاسلام كانوا يعتقدون ان العلوم الدينية أفضل العلوم وأشرفهـــا وأسماها وأرقاها وقد اشترطوا لدراستها البعد عن الاغراض المادية والدنيوية فلم يتعلموها لكسب مال أو جاه أو نفوذ أو ارضاء حاكم أو سلطان ولكنهم كانوا يقصدون من تعلمها وتحصيلها ارضاء الله ٠ وقد أثر عن الرسول الكريم انه قال : « لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولا لتجاروا به السفهاء ولا لتحيزوا به المجالس ،

---

(١) ج ١ ص ١٧٦ ٠

ولكن تعلموه لوجه الله وللدار الآخرة » كما اشترطوا لكسب العلم والمعرفة تطهير النفس من الرذائل والنقائص · قال الامام الغزالى فى كتابه فاتحة العلوم صفحة (٥) وكمال الآدمى فى قربه من الله تعالى · وانما يقرب بصنعة العلم · فما دام علمه أكثر وأكمل فهو الى الله أقرب وبملائكته أشبه · »

وأهم العلوم الدينية : القرآن الكريم ، والتفسير ، والحديث الشريف ، والفقه ، والالهيات · ولم تمنع دراسة العلوم الدينية الطلاب من دراسة المواد الاخرى كالحساب والهندسة والجبر ··· وكان لهم الحرية فى دراستها بشرط ألا تعوقهم عن دراسة الدين ·

وقد قسم الغزالى العلوم الى ثلاثة أقسام :

(أ) قسم مذموم قليله وكثيره كالسحر ·

(ب) وقسم محمود قليله وكثيره محمود الى أقصى غايات الاستقصاء ، وهو العلم بالله وسنته فى خلقه وهو علم مطلوب لذاته وللتوصل لسعادة الآخرة ·

(ج) وقسم يحمد منه مقدار الكفاية كالنجوم (١) ·

فالمثل الأعلى للمنهج فى العصر الذى عاش فيه الغزالى هو وضع العلوم الدينية فوق جميع العلوم ·

٢ ـ أثر المادة فى النصح والارشاد باتباع طرق الحياة الفاضلة الكاملة كعلم الاخلاق وعلم الحديث والفقه الاسلامى ·· ، وان اختلج فى صدرك ·· ان الاغراض مختلفة فى أمر العلوم ·· وأردت أن تعرف الافضل (منها) فاتبع قول الشاعر المتصوف :

كل العلوم سوى العلوم مشغلة ... الا الحديث والا الفقه فى الدين
والعلم ما كان قال حدثنا ... وما سواه فوسواس الشياطين

ولكن هذا القول لم يمنع طلاب العلم من الدراسة والبحث فى جميع العلوم مع التعمق فى دراسة الدين ·

وقد عنيت التربية الاسلامية بالتربية الخلقية فى المرحلتين الاولى والاخيرة من التعليم كما عنيت بدراسة العلوم الدينية ـ وخاصة الفقه ـ لانها أساس الفضائل والاخلاق الكاملة ·

---

(١) الاحياء للغزالى جـ ١ ص ٣٦ · بتصرف ·

قال أحد تلاميذ الامام الشافعي : كنت يوما عنـد الامام الشافعي أسائله عن مسائل بلسان أهل الكلام (علماء التوحيد) قال : فجعل الشافعي يسمع منى ثم يجيبنى عنها بأخصر جواب • فلما انتفيت قال : يابنى هل أدلك على ما هو خير لك من هذا ؟

قلت : نعم •

قال: يا بنى هذا علم ان أصبت أنت فيه لم تؤجر وان أخطأت كفرت فهل لك فى علم ان أصبت فيه أجرت (أثبت) وان أخطأت لم تأثم ؟

قلت : ماهو ؟

قال : الفقه •

ومن علماء الاسلام من عد دراسة معظم العلوم سواء أكانت دينية أم فلسفية مؤدية الى تحقيق الغـــاية الروحية والخلقية فأقبلوا على دراستها بقلوبهم • لتحقيق هذه الغاية الروحية والخلقية قبل أى اعتبار آخر • وهذه النزعة تظهر بوضوح فى اخوان الصفاء ورسائلهم •

وقد شجع بعض فلاسفة الاســـلام دراسة علم الجغرافيا الطبيعية لاعتقادهم أن دراسة علم النفس تشوق النفس الى الصعود الى عالم الافلاك والارواح • وشجع آخرون دراسة علم الأخبار وهو علم التاريخ وله منزلة كبيرة فى منهـــج التربية الاسلامية • فقد ذكر ياقوت فى كتابه : معجم البلدان : أن القرآن يستمد من التاريخ حوادث معينة للعظة والعبرة • وقال المقريزى عن علم التاريخ : « انه من أجل العلوم قدرا وأشرفها عند العقلاء مكانة وخطرا لما يحويه من المواعظ ••• والاطلاع على مكارم الاخلاق ليقتدى بها واستعلام مذام الفعال ليرغب عنها أولو النهى » •

وقال ابن خلدون فى مقدمته : « ان التاريخ يوقفنا على أحوال الماضين من الامم فى أخلاقهم والانبياء فى سيرهم والملوك فى دولهم وسياستهم حتى تتم فائدة الاقتداء بهم فى أحوال الدين والدنيا معا » ص ٧٦ •

٣ ـ هناك مواد كان المسلمون يدرسونها لما فيها من لذة فكرية ولذة علمية وهذا هو ما يقصده المثاليون من علماء التربية اليوم من دراسة العلم لذات العلم •• كما أن هنـاك مواد كان علماء الاســلام ينادون بدراستها لفائدتها العملية المباشرة فى الحياة• فالمنطق كان يدرس لان مراعاته تعصم الذهن عن الخطأ فى الفكر والحساب والهندسة يدرسان ليعتاد المتعلم عادات عقلية ووجدانية خاصة كالدقة فى التفكير والدقة فى القول والعمل ومعرفة

المواريث ، ومواعيد الصيام والمعاملات التجارية ، والفقه يدرس لفهم أحكام الشريعة الاسلامية فى العبادات والمعاملات ، والنحو يعلم ليعصم اللسان عن الخطأ فى القول ، والقـــلم عن الخطأ فى الكتابة ، ويقرأ المتعلم قراءة صحيحة • ويكتب كتـــابة صحيحة ، والطب يدرس للوقاية من الامراض وعلاج المرضى •

٤ ــ دراسة العلم لانه ألذ شيء فى نظر المسلمين • ان الانسان محب للاطلاع بفطرته لهذا عنى فلاسفة الاسلام بدراسة كثير من العلوم والفنون ليشبعوا ما لدى الانسان من ميل فطرى الى الاطلاع والمعرفة • وهذا هو النوع المثالى من التعليم حيث يدرس الطالب العلم لذات العلم ، لان فيه لذة علمية لا نظير لها • قال الحاج خليفة فى كتابه « كشف الظنون » ص ١٦ : « والعلم ألذ الاشياء وأفضلها • وشرف العلم اما لذاته أو لغيره والعلم حائز للشرفين جميعا ، لانه لذيذ فى نفسه فيطلب لذاته ولذيذ لغيره فيطلب لأجله • أما الاول فلا يخفى على أهله أنه لا لذة فوقها لانهـــا لذة روحانية وهى اللذة المحضة أما اللذة الجسمانية فهى دفع الألم فى الحقيقة » وقال أيضا : « ليس الغرض من الدرس تحصيل الرزق فى هذه الدنيـــا ولكن الغرض الوصول الى الحقيقة وتقوية الخلق » فالتربية الاســـلامية كانت مثالية تطالب بالعلم لما فيه من لذة روحية وللوصول الى الحقـــائق العلمية والاخلاق النبيلة ، ولم تكن فى اساسها مادية بل كانت المادة أو كسب الرزق أمرا عرضيا فى الحياة لم يقصد الكسب لذاته بل كان أمرا ثانويا فى التعليم • وان من ينظر الى ما تركه المسلمون من التراث الادبى الخالد والتراث العلمى العظيم يجد أمامه ثروة لا نظير لها فى العالم • تدل دلالة واضحة على شدة تعلق المسلمين فى عصورهم الذهبية بالادب لذاته والعلم لذاته لانهم كانوا يعيشون فى عالم روحى لا عالم مادى حيث طغت الناحية الروحية على الناحية المادية •

وقد ادعى الدكتور مكدونالد خطأ فى كتابه « الحالة الدينية والحياة فى الاسلام(١) » ان التعليم الاسلامى مادى (نفعى) تماما لا يعنى بميول الافراد فالمعرفة لابد أن تكون ذات فائدة بالنســـبة لهذه الدار أو للدار الآخرة والحق أن الدكتور مكدونالد لا يعرف روح التربيـــة الاسلامية ولو عرفها حقا بدون تعصب للمس مافيها من التربية الروحية المثالية: فقدكان العلماء من المسلمين يجدون لذة فى العلم والبحث ويتفرغون للدراسة لمـــا

(١) B. Mc. Donald : Religions Attitude and life in Islam, University of Chicago, P. 12

فيها من لذة علمية ، يقومون بالتدريس من غير أجر ، ولا يقصد الطالب من التعلم ناحية مادية أو نفعية ولا يفكر فى التعلم للحصول على وظيفة أو عمل أو نيل مركز أو جاه • فالاساتذة كانوا يهبون حياتهم للعلم والتعليم • والطلبة كانوا يجعلون حياتهم كلها للدراسة والتعمق فى العلم ، فقد كانوا يسافرون ويغتربون ويحتملون مشاق السفر والانتقال من بلد الى آخر لتلقى العلم من الاساتذة المشهورين والبحث عنهم وأخذ العلم من مناهله الاولى حبا للعلم • وكانوا متفرغين للعلم مقبلين عليه ، يجدون لذة كبيرة من التعب فى سبيل طلب العلم والانتاج العلمى •

فالتربية الاسلامية كانت تميل الى الناحية المعنوية الروحية لا الى الناحية المادية النفعية لا يشك فى ذلك من يطلع على أى كتاب قديم فى التربية الاسلامية ولم تنس الناحية المادية • وكان التعليم الاسلامى يعنى كل العناية بميول الافراد الطبيعية واستعداداتهم الفطرية ، ويوجههم ويرشدهم الى النواحى التى يميلون اليها بطبيعتهم •

فالدكتور مكدونالد كان مغاليا فى دعواه متعصبا فيما رآه • لم يقرأ شيئا من آراء الغزالى أو الفارابى أو ابن سينا أو العبدرى أو الزرنوجى أو ابن خلدون فى التربية والتعليم • ولو قرأ أى كتاب لأحد هؤلاء الفلاسفة لاقتنع كل الاقتناع بأن التربية الاسلامية ما كانت فى يوم من الايام مادية كما هى اليوم فى انجلترا والولايات المتحدة الامريكية، والرأى أن المسلمين كانوا شغوفين بالعلم لذات العلم والادب لذات الادب والفن لذات الفن معتنين بالناحية المعنوية للعلوم مراعين ميول الأفراد فى الدراسة والتعلم والتوجيه والارشاد • وفى استطاعة كل باحث أن يرى هذا الروح واضحا فيما تركه المسلمون من تراث خالد فى العلوم والفنون والرياضة •

وان الروح المثالى فى التربية الاسلامية يبدو فيما ذكره الحاج خليفة فى كتابه (كشف الظنون) صفحة ١٧ « ان العلوم ليس الغرض منها الكسب بل الاطلاع على الحقائق وتهذيب الاخلاق • وان من تعلم للاحتراف لم يأت عالما وانما جاء شبيها بالعلماء » فليس الغرض من التربية الاسلامية ماديا صرفا كما يدعى الدكتور مكدونالد ولكن الغرض الاساسى معرفة الحقائق العلمية وتهذيب الاخلاق الانسانية • وان من تعلم ليكون ماهرا فى حرفة من الحرف أو مهنة من المهن فلن يكون عالما ولكنه سيكون شبيها بالعلماء كما قال الحاج خليفة • هذه هى التربية الاسلامية المثالية • وليس معنى هذا أن المسلمين أهملوا التعلم لكسب الرزق كلية •

وسنوضح هذه الفكرة فى التعلم المهنى لكسب الرزق فى المبدأ التالى ٠

٥ ـ التعليم المهنى والفنى والصناعى لكسب الرزق :

كانت عناية التربية الاسلامية بالتربية الروحية والدينية والخلقية تامة ، يلمس ذلك كل ما اطلع على ما كتبه فلاسفتها وعلماؤها ، ولكنها فى الوقت نفسه لم تهمل توجيه المتعلمين لدراسة بعض المواد أو التدريب على بعض المهن والفنون والصناعات بعد الانتهاء من حفظ القرآن ودروسهم الدينية ، لاعدادهم لكسب عيشهم ورزقهم فى الحياة التى تنتظرهم ٠ أنظر الى ابن سينا حيث قال : « اذا فرغ الصبى من تعلم القرآن وحفظ أصول اللغة نظر عند ذلك الى مايراد أن تكون صناعته فيوجه لطريقه ٠ فان أراد الكتابة أضاف الى دراسة اللغة دراسة الرسائل والخطب ومناقلات الناس ومحاوراتهم وما أشبه وطورح الحساب ودخل به الديوان وعنى بخطه وان أريد أخرى أخذ به فيها ٠

فدراسة القرآن ومعرفة أصول اللغة كانتا من المواد الدراسية الاساسية فى المناهج الاسلامية فاذا انتهى الصبى منهما نظر فى أمره وفى الصناعة التى يميل اليها وأرشد الى السير فى طريقها حتى يجيدها ٠ واذا كان يميل الى الادب وأراد أن يكون كاتبا من الكتاب وجب عليه بعد دراسة علوم اللغة العربية أن يدرس رسائل الكتاب وخطب الخطباء ومحادثات الادباء ومناظراتهم ومناقشاتهم وما أشبهها ومرن على المحاسبة وعنى باجادة خطه ووظف فى الديوان ٠ وان أراد مهنة أخرى من المهن أعد لها ، حتى يكسب المهارة فيها ٠ أما العناية بالنواحى النفعية والمادية التى تأتى عرضا عن العلم والتعلم بطريقة غير مباشرة فتظهر فيما كتبه الادباء والشعراء فى فوائد العلم ونتائجه وأثره فى التقدم على النظراء والاقران والتمتع بالمزايا الادبية والفوائد المادية ٠

ومما يدل على عناية المسلمين بالخط لكسب الرزق منه القصة الآتية :

لما حضرت الوفاة أبا الغزالى وصى به وبأخيه أحمد الى صديق له من المحبين للخير وقال له : انى آسف كثيرا لعدم تعلمى الخط وأشتهى استدراك ما فاتنى فى ولدى هذين وهما محمد وأحمد فعلمهما ولا لوم عليك فى أن ينفد فى ذلك جميع ما أتركه لهما ٠

فلما مات الاب أقبل الصوفى على تعليمهما الى أن انتهى ذلك النذر اليسير الذى كان قد تركه لهمـا ابوهما • وتعذر على الصـوفى أن يقوم باطعامهما • فقال لهما :

اعلما أنى قد أنفقت عليكما ما كان لكما • وانى رجل فقير زاهد ليس لى مال فأواسيكما به • وان أصلح شيء أراه مناسبا لكما أن تلجأا الى مدرسة كأنكما من طلبة العلم فتحصلا على القوت الضرورى الذى يعينكما على الحياة •

ففعلا ذلك • وكان هو السبب فى سعادتهما وعلو درجتهما • وكان الغزالى يحكى هذا ويقول : طلبنا العلم لغير الله فابى أن يكون الا لله •

وقد كتب المسلمون كثيرا عن فوائد العلم ومزايا التعليم الروحية والمادية وأثره فى التخلص من الفروق الاجتماعية بين الافراد والوصول الى أسمى المراكز والمراتب ولكنهم لم يقصدوا من العلم هذه الفوائد والمزايا بل قصدوا بالعلم مرضاة الله ولكن هذه الآثار أتت عرضا من غير قصد • فالتعليم الاسلامى كان فى الغالب روحيـا ولكنه لم يهمل التعلم لكسب العيش والرزق •

وقد كان هناك علماء من المسلمين يعارضون الكسب بالتعليم ويذمون العلم اذا قصد به الكسب ، ولاعجب فقد كانوا يقصدون وجه الله بعلمهم • ويعملون عملا آخر يربحون منه ما يقتاتون فى الحياة فأبو على الحسن بن الهيثم مثلا كان ينسخ الكتب من المكتبات بأجر وكان غيره يشتغل بالنسخ أو زراعة الحقول أو أية صنعة من الصناعات لكسب الرزق • وكان هناك علماء آخرون من المسلمين يشتغلون بأجر فى القضاء ويدرسون بأجر فى التعليم• ويمكننا أن نقول حقا (ان الغرض الاسمى والهدف الاول من العلم والدراسة فى التربية الاسـلامية هو التربية الخلقية والروحية) والعلم لذات العلم ، والعلم حبا للعلم فلم يقصد علماء الاسلام من العلم والتعلم الحصول على وظيفة من الوظائف أو منصب من المناصب ولم يريدوا الجاه أو القوة والسلطان بل أرادوا العلم للعلم ومرضاة الله وكرهوا أن يكون الغرض من العلم والدافع اليه ماديا صرفا ولم يقصدوا الكسب بعلمهم ، بل كان الكسب يأتى عرضا من غير طلب •

ففى التربية الاسلامية كان العلم يدرس لذاته وكان من أسمى أغراض التربية ولم تكن الناحية المادية هى الباعث الاول على طلبه ، بل كانت ثانوية تأتى عرضا من غير قصد . فاللذة العلمية والناحية الروحية قد

تغلبتا على الناحية المادية والنفعية وهـذا هو الروح المثـالى والغرض الأسمى فى التربية الاسلامية .

٦ ـ دراسـة بعض المـواد وسيلة لدراسة غيرها . فقـد درس المسلمون اللغة العربية والادب لانهما يسـاعدان على فهم تفسير القرآن والحديث الشريف والفقه الاسلامى . وقد وصل علماء الاسلام الىدرجة كبيرة من التعمق والكمال فى العلوم اللغوية كالنحو والبلاغة والشـعر وتركوا فيها آثارا علمية خالدة لا نظير لها فى اية لغة من لغات العالم ، مع انهم كانوا يدرسونها وسيلة لدراسة غيرها .

والخلاصة ان التربيـة الاسلامية قد عنيت بالدراسات الدينيـة والخلقية والروحية أولا ثم عنيت بالدراسات الثقـافية ثانيا . وأهم فرق بين التربية الاسلامية والتربية الحديثة ان الاولى كانت مثالية هدفهـا الأسمى الجانب الروحى والتربية الخلقية الكاملة . فلم يقصد المسلمون من العلم والتعلم جاها أو مركزا او وظيفة أو مالا ولكنهم كانوا يدرسون العلم لذات العلم وارضـاء الله فألفـوا كتبا قيمة وتركوا آثارا علمية خالدة الى اليوم .

اما التربية الحديثة فقد تغلبت فيها الناحيـة المادية والدنيـوية فكل فرد فى المدرسة او الجامعة او المعهد يريد بعد الانتهاء من الدراسة وظيفة أو عملا أو مركزا واشتد الصراع والاقبال على التعليم من اجـل الوظيفة والمال وضعف البحث وقل الانتاج العلمى وزالت قداسة العلم وعظمة العلماء .

وفى الوقت الذى عنيت فيه التربية الاسلامية بالقيمة العلميـة الروحية لم تهمل العناية بالمواد الثقافية والاعـداد المهنى والتـدريب العملى والتفكير فى الحياة . عملا بقول الرسول الكريم : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » .

ولا نبالغ اذا قلنا ان العالم اليوم فى حاجة الى التربية الاسلامية تلك التربية المثالية الروحية الخلقية الدينية ، حتى نتعلم لذات العـلم ، ولذة العلم ، ونتخلص من الفساد والشر والرذيلة ، والشره والطمع ، والاسـتعمار والطغيـان ، والحـروب وويلاتهـا ونتمتع بحيـاة هادئة . وحـرية تامة وعـدالة مطلقة وسلم دائم وعيشة تعاونيـة ديمقراطية سعيدة .